

فساد الاعتبار

يقول الله جل وعلا: { قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ تَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } . تكلمنا بالأمس على قوله: { قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } . وقوله- جل وعلا- حكاية عن إبليس: { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ } كَلِمَاتٌ لَهَا مَعْنَى مَا يَسْأَلُ إِبْلِيسَ وَهُوَ عَالِمٌ، لِأَنَّهُ -جَل وَعَلَا- أَعْلَمُ بِالْمَوْجِبِ الَّذِي بِسَبَبِهِ امْتَنَعَ إِبْلِيسُ مِنَ السُّجُودِ قَالَ لَهُ: { مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } وَهُوَ أَعْلَمُ، فَاجَابَ إِبْلِيسُ عَلَيْهِ لِعَائِنِ اللَّهِ بِمَا كَانَ يَضْمُرُهُ مِنَ الْكِبَرِ، وَكَأَنَّهُ اعْتَرَضَ عَلَى رَبِّهِ، وَوَجَّهَ رَبَّهُ جَل وَعَلَا بِأَنْ تَكْلِفَهُ إِبَاهُ أَمْرًا لَا يَنْبَغِي وَلَا يَصْلِحُ فَخَطَأً رَبَّهُ جَل وَعَلَا، سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَجَعَلَ ذَلِكَ ذَرْبَةً لَهُ وَمَبْرَرًا فِي زَعْمِهِ الْبَاطِلَ لِعَدَمِ السُّجُودِ. { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ } . كَيْفَ تَأْمُرُنِي بِأَنْ أُسْجِدَ لِأَدَمِ وَأَنَا أَفْضَلُ مِنْ أَدَمِ؟ وَالْفَاضِلُ لَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يُؤْمَرَ بِالسُّجُودِ لِلْمَفْضُولِ فَهَذَا تَكْلِيفٌ لَيْسَ وَاقِعًا مَوْقِعَهُ. هَذَا قَوْلُ اللَّعِينِ لِعَنَةِ اللَّهِ: { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ } . خَيْرٌ تَسْتَعْمَلُ اسْتِعْمَالَيْنِ، تَسْتَعْمَلُ اسْمًا لِلْخَيْرِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الشَّرِّ، وَكَثِيرًا مَا تَسْتَعْمَلُ فِي الْمَالِ كَقَوْلِهِ: { إِنْ تَرَكَ خَيْرًا } أَي مَالًا. وَتَسْتَعْمَلُ صِيغَةً تَفْضِيلٍ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا. فَقَوْلُهُ: { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ } أَصْلُهُ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، أَي أَكْثَرُ خَيْرًا مِنْهُ لِفَضْلِ عُنْصُرِي عَلَى عُنْصُرِهِ، وَلِفِظَةِ خَيْرٍ وَشَرٍّ جَعَلْتُهُمَا الْعَرَبُ صِيغَتِي تَفْضِيلٍ، وَحَذَفَتْ هَمْزَتَهُمَا لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهَا كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ فِي الْكَافِيَةِ: وَغَالِبَا أَغْنَاهُمَا خَيْرٌ وَشَرٌّ عَنْ قَوْلِهِمَا آخِرُ مِنْهُ وَأَشْرُ قَالَ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ أَدَمَ . وَالَّذِي هُوَ الْفَاضِلُ، وَالَّذِي هُوَ أَكْثَرُ فَضْلًا وَخَيْرًا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَهْضُمَ وَيُؤْمَرَ بِالسُّجُودِ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ، فَهَذَا التَّكْلِيفُ لَيْسَ وَاقِعًا مَوْقِعَهُ؛ وَلِذَا لَا امْتَثَلَهُ فَتَكْبِيرٌ، وَتَجْبِيرٌ، وَجَعَلَ تَكْلِيفَ رَبِّهِ لَهُ وَاقِعًا مَوْقِعًا ... عَلَيْهِ لِعَائِنِ اللَّهِ، فَبَاءَ بِالْخِيبةِ وَالْخُسْرَانِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ جَل وَعَلَا. قَالَ إِبْلِيسُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ أَدَمَ ثُمَّ بَيَّنَّ سَبَبَ الْخِيبةِ فَقَالَ: { خَلَقْتَنِي مِنْ تَارٍ } يَعْنِي أَنْ عُنْصُرِي أَشْرَفُ مِنْ عُنْصُرِهِ؛ لِأَنَّ النَّارَ فِي زَعْمِهِ أَشْرَفُ مِنَ الطِّينِ؛ لِأَنَّ النَّارَ مُضِيئَةٌ، نِيرَةٌ، طَبِيعَتُهَا الِارْتِفَاعُ، خَفِيفَةٌ، غَيْرُ كَثِيفَةٌ، وَأَنَّ الطِّينَ .. كَثِيفٌ، مُظْلَمٌ، لَيْسَ بِمُرْتَفِعٍ، هَذَا قَوْلُهُ فِي زَعْمِهِ. وَزَعَمَ أَنَّ الْفَرْعَ تَابِعَ لِعُنْصُرِهِ فِي الْفَضْلِ، فَقَاسَ نَفْسَهُ عَلَى عُنْصُرِهِ الَّذِي هُوَ النَّارُ، وَقَاسَ أَدَمَ عَلَى عُنْصُرِهِ الَّذِي هُوَ الطِّينُ، وَاسْتَنْتَجَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ أَدَمَ؛ لِأَنَّ عُنْصُرَهُ فِي زَعْمِهِ خَيْرٌ مِنْ عُنْصُرِهِ. .. الَّذِي هُوَ { اسْجُدُوا لِأَدَمَ } عَلَى إِبْلِيسَ لِعَنَةِ اللَّهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَاسَ قِيَاسًا فَاسِدًا وَرَدَّ بِهِ نِصُوصَ اللَّهِ وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ هُوَ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ عَلَيْهِ لِعَائِنِ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ رَدَّ نِصُوصَ الشَّرْعِ الْوَاضِعِ بِقِيَاسَاتٍ بَاطِلَةٍ عِنَادًا وَتَكْبِيرًا، فَإِمَامُهُ إِبْلِيسُ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَدَّ نِصُوصَ الصَّرِيحَةِ بِالْمَقَائِيسِ الْكَاذِبَةِ عَلَيْهِ لِعَنَةِ اللَّهِ. وَقِيَاسُ إِبْلِيسَ هَذَا بَاطِلٌ مِنْ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ. الْأَوَّلُ مِنْهَا- أَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلنَّصِّ مِنْ أَمْرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: { اسْجُدُوا لِأَدَمَ } وَكُلُّ قِيَاسٍ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ الصَّرِيحِ فَهُوَ قِيَاسٌ بَاطِلٌ، بَاطِلٌ، بَاطِلٌ. وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْأَصُولِ أَنَّ كُلَّ قِيَاسٍ خَالَفَ نِصَا مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَيَقْدَحُ فِيهِ بِالْقَادِحِ الْمَسْمُومِ فَسَادَ الْإِعْتِبَارِ. وَمُخَالَفَةُ الْقِيَاسِ لِلنَّصِّ تَسْمَى فَسَادَ الْإِعْتِبَارِ، وَتَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِ الْقِيَاسِ فَهَذَا وَجْهٌ مِنْ أَوْجِهِ الْبَطْلَانِ؛ لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلنَّصِّ الصَّرِيحِ. وَلَا إِحْقَاقٌ، وَلَا قِيَاسٌ مَعَ وَجُودِ النِّصُوصِ الصَّرِيحَةِ. الثَّانِي- أَنَّ إِبْلِيسَ كَاذِبٌ فِي أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ، بَلِ الطِّينُ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ؛ لِأَنَّ طَبِيعَةَ الطِّينِ الرِّزَانَةَ، وَالتَّؤَدَةَ، وَالِإِصْلَاحَ، وَالْجَمْعَ، تَوَدَعَهُ الْحَبَّةُ فَيُعْطِيكُهَا سَنِيلَةً، وَتَوَدَعَهُ النَّوَاةُ فَيُعْطِيكُهَا نَخْلَةً، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْبَسَاتِينِ الْمَغْرُوسَةِ فِي طِينٍ .. طَيِّبٍ وَجَدْتَ مَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ الْجَنِيَّةِ، وَالرَّوَابِحِ، وَالْأَزْهَارِ، وَالثَّمَارِ عَرَفْتَ قِيَمَةَ الطِّينِ. أَمَا النَّارُ فَطَبِيعَتُهَا الطِّيشُ، وَالْخَفَةُ، وَالتَّفْرِيقُ، وَالِإِفْسَادُ، وَكَلِمَا وَضَعْتَ شَيْئًا فِيهَا فَرَقْتَهُ، وَفَسَدْتَهُ، وَطَبِيعَتُهَا الطِّيشُ، وَالْخَفَةُ، وَطَبِيعَتُهَا الشَّرُّ مِنْ هُنَا فَيَحْرَقُ مَا هُنَاكَ، ثُمَّ يَطِيرُ الشَّرُّ مِنْ هُنَاكَ فَيَحْرَقُ مَا وَرَاءَهُ، وَالَّذِي طَبِيعَتُهُ الطِّيشُ، وَالْخَفَةُ، وَالِإِفْسَادُ، وَالتَّفْرِيقُ لَا يَكُونُ خَيْرًا مِنَ الَّذِي طَبِيعَتُهُ التَّؤَدَةُ، وَالرِّزَانَةُ، وَالْجَمْعُ، وَالِإِصْلَاحُ، تَوَدَعَهُ الْحَبَّةُ فَيُعْطِيكُهَا سَنِيلَةً، وَتَوَدَعَهُ النَّوَاةُ فَيُعْطِيكُهَا نَخْلَةً، فَالطِّينُ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ بِأَضْعَافٍ؛ وَلِذَا غَلَبَ عَلَى إِبْلِيسَ عُنْصُرَهُ وَهُوَ الطِّيشُ، وَالْخَفَةُ فَقَاسَ، وَتَمَرَّدَ عَلَى رَبِّهِ، وَخَسِرَ الْخُسْرَانَ الْأَبَدِيَّ. وَغَلَبَ عَلَى أَدَمَ عُنْصُرَهُ الطِّينِيَّ فَلَمَّا وَقَعَ فِي الزَّلَّةِ رَجَعَ إِلَى السَّكِينَةِ، وَالتَّؤَدَةِ، وَالتَّوَاضُعِ، وَالِاسْتِغْفَارِ لِرَبِّهِ حَتَّى غُفِرَ لَهُ. الثَّلَاثُ- أَنَا لَوْ سَلَمْنَا تَسْلِيمًا جَذْرِيًّا أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ فَشَرَّفَ الْأَصْلَ لَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ الْفَرْعِ فَكَمْ مِنْ أَصْلِ شَرِيفٍ، وَفَرْعٍ وَضِيعٍ. وَكَمْ مِنْ أَصْلِ وَضِيعٍ وَفَرْعٍ رَفِيعٍ. إِذَا افْتَخَرْتَ بِأَبَاءِ لَهْمِ شَرَفِ قَلِّ لَا صَدَقْتَ وَلَكِنْ بَنَسَ مَا وَلَدُوا فَكَمْ مِنْ أَصْلِ رَفِيعٍ، وَفَرْعٍ وَضِيعٍ.